مفهوم الكتابة وتشكلاته في المشروع النقدي المعاصر

أ. م. د. حارث حمزة عبد اليمة/ كلية الفنون الجميلة/ جامعة بغداد
م. د. محمد مهدي حسون/ كلية الفنون الجميلة/ جامعة بغداد

الفصل الأول ـ المهاد المنهجي

أولا: مشكلة البحث: ان العملية الإبداعية تستلزم خبرة عقلية ووعياً معرفياً في ادراك ماهية الوجود وكنه الذات داخله بوصفه جزءاً من النظام التواصلي والجمالي في صناعة الفضاء التداولي بين متوالية من جدلية العلاقة بين المفهوم والمعنى من جهة وقراءة إجراءاتها تلك العلاقة ونتائجها ضمن حركية الوعي المعرفي من جهة أخرى. لقد برز تحول واضح في المناهج النقدية لعصر الحداثة وما بعده، انتج علاقة تبادلية بين جماليات الإبداع بكل خيالاته ولا منطقيته، من جهة، والعلم بفرضياته وتجريبيته، ونسبيته من جهة أخرى، فقد ظهرت نظريات ومناهج عدة تعددت مرتكزاتها بين الشكل والمضمون او السياق او التركيز على البنى المستترة ومضمرات المعنى، فيما اتجهت الدراسات اللغوي والالسنية الى دراسة الكيفية اللغوية التي تتشكل وتبنى تراكيبها في خصوصية التعبير عن فكر او شئ دون سواه. لذا فان جدلاً واضحا يؤكد خصوصيته مفهوم الكتابة بوصفه اعادة انشاء وكتابة العالم التصوري في رؤاه التداولية ضمن مديات المساحة الابداعية والتي اضطلع بها المنهج التفكيكي في الكشف عن مشروع ازلي تجلى منذ اولى ملامح الفهم الانساني للوجود بكل مرتكزات الاستمرار والهوية الانسانية على اختلاف مراحلها وكيفياتها .عليه تبلورت مشكلة البحث في محاولة تحليل مفهوم الكتابة بوصفه مشروعاً في اعادة كتابة الخطاب الانساني ولاسيما الابداعي والمسرحي على وجه الخصوص وصاغ الباحث مشكلته التي مثلت عنوان بحثه الموسوم(مفهوم الكتابة وتطبيقاته في الخطاب المسرحي.

ثانياً: اهمية البحث : تأتي اهمية البحث بوصفه محاولة للكشف عن مفهوم الكتابة وابعاده الاشتغالية على مستوى المنهج النقدي والخطاب الابداعي .

ثالثا: هدف البحث: التعرف الى مديات مفهوم الكتابة بوصفه مرتكزاً نقدياً قائما على اعادة الفهم والكتابة للعالم الانساني والابداعي ضمن معطياته الثقافية والمعنائية والتواصلية المتمثلة بالمتلقي.

المهاد النظري

المبحث الأول: الكتابة (المفهوم والإجراء):

أولاً: المفهوم: ان عمليات التحول المعرفي بين مراحل الفكر الإنساني أدت الى اختلاف مديات تصور العالم بمكونيه المعرفي والوظيفي، ما أدى إلى ان تكون لكل ظروف زمانية او مكانية معطياتها التفكيرية والتحليلية التي تؤسس فضاءات التحاور بين الذات بوصفها وعياً قرائياً من جهة ومجمل العمليات الملامسة لمنظومة الاثر بمستوياته المتعددة وظواهره المنشطرة والمنبثقة عن بعضها البعض من جهة اخرى. لقد اكدت اللغة خصوصيتها وفاعليتها بوصفها مفهوما معرفياً ووظيفياً في الوقت ذاته عن طريق منظومة من التعالقات التي انتجت عمليات التحديث والتنظيم المستمرة للنظام اللساني على المستوى الإبداعي او التحليلي الذي يعبر بطبيعة الحال عن فلسفة العصر بمجمل تحولاته ضمن معطيات اللحظة الكتابية التي تحدث داخلها عمليات معقدة ومتنوعة من القراءات بهدف تفكيك الخطاب وتأسيس مجال من التفاعلات التداولية " تصبح اللغة في الممارسة التفكيكية للعب وفق تجربة جمالية ومجازية تنتفي معها هواجس المطابقة او البحث المستميت عن النسب بين الشيء وصورته او الدال ومدلوله".(١)

ان القراءة المعاصرة تدخل مجالاً تفاعلياً يتضمن عمليات مستمرة من القراءات، التأويلية، التصوري، الخيالية، التداولية والثقافية، لتنتج مجالاً ابستميولوجياً (معرفياً) يمكن الإصطلاح عليه، بـ (المجال الكرمتولوجي) الذي يرى في

الوجود فعلاً مضارعاً([٢]) يتوجب قراءته وكتابته من جديد بطريقة مختلفة واسلوب مغاير يتتبع الاثر القرائي بهدف تحقق فعل الكتابة. والكتابة مفهوم إستراتيجي في المنهج النقدي المعاصر، اقترحه الفرنسي (جاك دريدا)، بوصفه فعلاً مقابلاً لفعل قراءة الواقع والتأريخ الثقافي للمجتمعات يعمل هذا المفهوم ويأخذ مجاله الإجرائي استنادا الى تفكيك البناء المركزي في عناصر الخطاب الإبداعي والمسرحي على وجه الخصوص، وبالتالي فانه يقوم بخلق مجال من الاختلافات، الضمنية والسياقية، والتي يقوم على اساسها المنهج التفكيكي عند (دريدا)" التفكيك هو بالضبط تحديد المنطق الانطولوجي واولاً تحديد الفعل الحاضر للشخص الثالث او الغائب س يكون ص ([٣]) ." فالكتابة مفهوم يعتمد نسقاً شمولياً في متوالية من التشكلات غير المركزية وغير المستقرة او الثابتة فهي انثيالات مستمرة تجتمع في الهدف وتختلف في الطرائق والاشكال وقنوات التعبير ضمن حركية دينامية ذات فعل متشض بين عدميتي: الماضي والمستقبل ولحظوية الحاضر الـ (آن)، الذي يتعالق كما يرى الباحثان في جوهره بمفاهيم عدة، لعل ابرزها:

- مفهوم الفكرة: إذ ان ثمة تعالقاً يعتمد استلهام الجوهر الإدراكي للوعي عن طريق المعطى الفكري للنظام بمستوييه الكوني والإنساني على حدٍ سواء من جهة، وتراتبية التشكل المعنائي للمفاهيم عبر تطور مرحل الوعي من جهة أخرى .
- مفهوم اللغة: فالكتابة لغة تتعالق مع شتى اشكال النظامين: السببي والوظيفي للوعي بمفهومه التفكيري .
- مفهوم التاريخ: فالكتابة انما هي تأصيل لفعل النفي الذي يقابل الاثبات في نفي المركزية التقليدية للكتابة بمفهومها النسقي والافقي بقابله اثبات

المبحث الثاني: مفهوم الكتابة في الاشتغال الجمالي:

ان الفعل الجمالي انما هو بنية حوارية ترتكز الى افعال التصور العلائقي لطبيعة الأنشطة الإنسانية وتحولات الفكر وانفتاحه على افعال التداول الثقافي المتمثلة في التحديث للأداة التو صيفية، فكان مفهوم الـ (الكتابة) مشروعاً تنظيرياً واجرائياً يؤطر عمليات التصور والتخيل ومن ثم اجراءات تشكيل واعادة تشكيل الوقائع ضمن متوالية من المشاريع الابتكارية في قراءة العالم بكينونيته "

ان مجمل التمظهرات المنبثقة في صور العمل الفني على اختلاف كيفياته انما هي ضرب من قراءة الواقع بشكل مغاير وإعادة كتابته ضمن مجال صفري انتاج المعنى الافتراضي والنسبي في النسق الكتابي داخل المقترح الافتراضي (النص) الذي يتجسد ضمن انسلاخه عن الفعل اللساني والتخاطبي التقليدي الى فعل التصور للمعنى وافتراضاته الدلالية." فالنص لم يعد يتخذ الجملة نموذجاً فلقد غدا غالباً، دفقاً قوياً من الكلمات، وشريطاً تحتياً للغة"([٤] ومن هذا المنطلق يوصف النص بانه فعل تواصلي يتوسط المساحة القائمة بين الفضاءات المتعددة للمعنى بنوعيه الرئيسين:

- الفضاء الايقوني بالمعنى السياقي
- الفضاء التأويلي مقابل فضاء الانفتاح

تعد افعال الكتابة افتراضاً تأسيسياً لمشروع تحاوري مستمر يمتاز بالديناميكية التي تختلف تارة وتتجاور او تنقطع تارة اخرى نتيجة لمجمل المتغيرات المعرفية عن طريق التحليل لمعطيات الفعل الآني وتصوراته القرائية التي تتوزع بين حقلين رئيسين:

١. الكتابة ضمن اطار الفعل الابداعي ببعده التخيلي.

٢. الكتابة ضمن اطار المنهج التنظيري متمثلاً بالمشروع النقدي.

ان العلاقة التفاعلية بين الكتابة الفنية والكتابة النقدية تؤكد خصوصيتها في عمليات غير متناهية من البحث في انظمة الواقع ومكوناتها التي تمتاز بطابعها التركيبي من الناحيتين :

١. التكوينية

٢. الاجرائية.

تمثل ذلك بتعدد المقاربات التواصلية في محاولة لإعادة تشكيل الواقع انطلاقاً من محولة استيعاب النسق الموضوعي وانصهاره ضمن مجمل الانساق الافتراضية والآنية خارج حدود المطلق والثابت والتقليدي والمتداول ... الخ.

ان التحولات المستمرة في مسيرة الوعي الانساني أنتجت مشروعاً يحمل طابع الحوارية ومنطلقاته في الكشف عن جوهر منطلقات الواقع ما بعد الحداثوية متمثلة بهيمنة النسبي والمختلف والشمولي بطابعه الذي يتجاوز حدود المحلية الى مساحة الفضاء التاويلي الذي يعني بالبحث في مفهوم المعنى ولا يعنى بالتفصيلات الدقيقة لتراكيب تكون النظام.

تمثل اللغة الكيان الأرحب الذي يسعى فيه الإنسان الى استيعاب أنساقها وعناصرها بهدف تمكين الوعي من التواصل مع قوانينها وتحولاتها الشكلية والسياقية بما ينسجم ومجمل التحولات والإنزياحات داخل النظام اللغوي بكل ما يحتويه من التراكيب: الكلامية، الصورية، البلاغية، الصوتية ... الخ .

إذ تتشكل البنى اللغوية على وفق مستويين من الأفعال هما

- الأفعال المركزية.
- الأفعال غير المركزية.

عن طريق اعادة صناعة التاريخ بالنسبة للواقع وانصهاره مع معطيات الفعل الثقافي للخطاب الانساني في مركزية وعيه وانتقاله الى منظومة من الجدليات التداولية في الخروج عن مساحة المركز الى مشروع فكري ينصهر فيه الزمان والمكان ضمن فضاء مفهوم الكتابة بشقيه " وكلمة مشروع **project** هي الكلمة التي يفضلونها دعاة التفكيكية في وصفهم اعمال دريدا والقصد هي الالحاح على ان التفكيك لا يمكن مناقشته باستخدام ادوات العقل والتحليل المنطقي فهو يقتضي منطقاً آخر او بديل ومغاير"(٥) وبهذا تتمثل ادوات هذا المنطق بـ :

١. الاختلاف: ونعني به تصعيد وتصدير اشكال مغايرة تتجاوز الشكل التقليدي والحس المنطقي والاستعاضة عنه بالتصور واعادة كتابة العالم ضمن متوالية الاختلافات خارج التمركز العقلاني والمادي، للمعنى الغائب ضمن انظمة متشابكة من العلاقات الاولية في مضمرات ثقافة الخطاب الجمالي، وتجسده ضمن المشروع النقدي المعاصر.

٢. الإرجاء: المقصود به إضمار المعنى وتأجيله وعدم التصريح عن طريق تضمينه لمكونات الخطاب ووحداته التركيبية التي تؤسس وتكرس مشروعية المشروع النقدي بوصفه متوالية من الحضور المختلف للوعي القرائي، وغيابات مستمرة للوجود ولاسيما الواقع في كتابته المختلفة التي تعتمد اقصاء التفصيلات وارجاء مناقشتها والتصريح بدقائقها الدلالية والجمالية انطلاقاً من مرحلة الفهم الاولي في القراءة والتأويل، ومن ثم الى التحول من التركيب المضمر المتمثل في ضرب من الخامة المركبة التي تخضع بالضرورة الى نسبية التشكل في الوظائف نتيجة لعمليات التشكل في العلاقات، التي يخضع بمجملها الى تأثيرات اللحظة التاريخية.

وبعد التحقق من وجود المعنى فان مجمل العمليات التفكيرية تؤكد اشتمالها لمفهوم النص، بوصفه تركيباً شمولياً يعبر عن عمليات معقدة في البحث عن رسالة تحتوي معنى ينبثق ضمن متوالية من التقابلات والثنائيات مثل: (الغياب ـــ الحضور ، التجاورات ــ الانقطاعات ، الظاهر ــ المضمر ، المركز ـــ الهامش ... الخ)، فالعملية الانسانية عبر متوالياتها تشكل تراكيباً دقيقة في صناعة الخطاب الجمالي علي المستويين: الابداعي والتنظيري (النقدي) من جهة، والعلاقة التبادلية بينهما من جهة اخرى. وبالتالي تحوله من شكله التدويني الى آخر منشطر بين اقطاب، مركب قرائي مستمر وغير متناه، في متوالية من عمليات انتاج المعنى عن طريق اعادة هيكلة المقترح المعنائي وكتابته بشكل ينسجم ومعطى الخطاب الثقافي ضمن زمن ومكان معينين" إذ يتمتع النص الدرامي بقدره واسعة على خلق العلامات فهو سلسلة نتاجات فاعل مستمرة العطاء على شكل تلفظات ، يتابع عبرها الفاعل الحيوي وهو بلاشك فاعل المؤلف وفاعل القاري " (.. ([٦]

فعملية التحاور بين مكونات الفضاء التعايشي للإنسان بصفته الواعية، وانساق ذلك التحاور في تحققه على وفق جدليات التحاور والتطور التي ترتبط بضرورات اللحظة التاريخية، وما تؤكده اللغة بأنها شكل متحول ومتوالد، حتى تصل مرحلة تتجاوز حدود المركز والمطلق الى مساحات الانفتاح غير المركزي والنسبية، حتى تصل مفهوم الكتابة بصفته فعلاً ثقافياً متعالقاً مع مجمل المتغيرات المسببة والوظيفية، ولذا يرتأئي الباحث البحث في تأسيس المفهوم قبل الدخول في تفصلات البحث وتفرعاته، فاللغة ليست أدوات تواصل، وتفكير فقط، إنها الشكل المتحرك من الفكر في " الفضاء" الاجتماعي. إنها النموذج الأرقى" الحركي" لمنظومة الفكر." (.([٧]

ما أسفر عنه المهاد النظري:

-لكتابة مشروع تحاوري يعتمد نسقاً شمولياً في متوالية من التشكلات غير المركزية وغير المستقرة او الثابتة التي تتوزع بين: التاريخ والثقافة والوعي.

-من هذا المنطلق يوصف النص بانه فعل تواصلي يتوسط المساحة القائمة بين الفضاءات المتعددة للمعنى بنوعيه الرئيسين:

-الفضاء الايقوني بالمعنى السياقي

-الفضاء التأويلي مقابل فضاء الانفتاح

-يتشكل مفهوم الكتابة عن طريق اعادة صناعة التاريخ بالنسبة للواقع وانصهاره مع معطيات الفعل الثقافي للخطاب الانساني في مركزية وعيه وانتقاله الى منظومة من الجدليات التداولية في الخروج عن مساحة المركز الى مشروع فكري ينصهر فيه الزمان والمكان ضمن فضاء مفهوم الكتابة بشقيه :

الاختلاف: ونعني به تصعيد وتصدير اشكالاً مغايرة تتجاوز الشكل التقليدي

-الإرجاء: المقصود به إضمار المعنى وتأجيله وعدم التصريح عن طريق تضمينه لمكونات الخطاب ووحداته التركيبية

الفصل الثالث- اجراءات البحث:

١. منهج البحث: يتمثل منهج البحث باعتماد الباحث للمنهج الوصفي في تحليل عينة بحثه.

٢. عينة البحث: اعتمد الباحث عينة بحثه عددا من المفاهيم النقدية والقرائية في عمليات تشكلها وتعالقها داخل مجال الكتابة تمثلت بالآتي:

١. الثقافة.

٢. المعنى.

٣. المتلقي.

٣. طريقة اختيار العينة : تم اختيار عينة البحث بشكل قصدي منتخب على وفق منطلقات البحث واهدافه.

٤. تحليل عينة البحث:

النموذج رقم (١):

١. الثقافة: يعد مفهوم الثقافة احد المفاهيم التي برزت في شكل واضح في الألفية الثالثة لما يمتاز به من انفتاح المعنى وتصورات العالم عن طريق مغادرة المراكز التقليدية والثوابت القبلية، ما ادى الى اقترانه بمفهوم الكتابة. فان ثنائية (الثقافة ـ الكتابة) تتجلى بوصفها نظاماً من التصورات التي تتعالق والانظمة التواصلية في مستويين رئيسين من القراءة بين الذات والوجود تتمثل بـ

١. المستوى التاريخي: ان العملية التاريخية تخضع الى عوامل الانعكاس وافعال الضرورة لعملية التصور لفعل التاريخ واعادة انتاجه على وفق عوامل التشفير الدلالي واشتغالاته ضمن منظومة من الانصهارات بين الماضي من اساطير وطقوس والحاضر من آنية الادراك والمستقبل من رؤيته للآخر بكل صوره، انه اللحظة الادراكية بين عدمين التي تستلهم القبلي والبعدي ضمن الـ (آن) و الـ (هنا).

٢. المستوى التداولي: الثقافة فعل منفتح على حركية الوعي الانساني بصفته فعلاً جمعياً يستوعب الفعل الزمني بعد تجريده من بعد الفيزيائي الى بعد تداولي بين الوعي الانساني والوجود، وكما هو في مسرح القسوة حيث تتم عملية كتابة الخطاب النقدي والجمالي .

ان مفهوم الكتابة يمثل اثراً تاريخياً وهو يتشكل من مجمل مكونات الخطاب التاريخي: الرمز، التابو، الطقس او بين المادي والميتافيزيقي انه حوار مستمر ومتوالد مؤسساً ظرفا زمنياً جديداً يمكن الاصطلاح عليه بـ الزمن الكتابي. فضلاً عن ذلك فان المسرح الملحمي انما هو تجل واضح لمفهوم التاريخ عبر متوالية الكتابات على مستوى جدليات الصراع لصراع الطبقات ورأس المال ومفهوم الحرب عن طريق تاسيس فجوة تمتاز بإيجابيتها في استيعاب مجمل الكتابات بين المتلقي وخطاب التلقي.

٢. نموذج رقم (٢):

٣. المعنى:

يمثل المعنى احد اقطاب تمثل مفهوم الكتابة بوصفه خاضعاً الى مرتكزين اساسيين:

١. الاختلاف

٢. الارجاء

فالاول فعل لحظوي قائم على اشتغالات الشفرة ضمن جدلية العلامة ومفهومها الذي تجاوز مرحلة الاستقرار والثبات الى مرحلة المفهوم النسبي المتغير والمنفتح على فضاء الآخر بتأويلاته وحركته المستمرة داخل مجال الكتابة ، وهو ما يتضح جلياً في علامات السياق للخطاب الابداعي على اختلاف كيفياته، فالمسرح اجتاز مرحلة التقيد بالنص اللساني الى مرحلة الاختلاف والانقطاع الى مرحلة تصور العلاقات الداخلية واستيعابها نحو صناعة الافعال الشمولية ذات الانفتاح التأويلي لكتابة

الاثر. اما المستوى الثاني، فان مفهوم الكتابة يعتمد في انشاء مجاله على تحويل المعنى من شكله المركزي الى فعل هامشي ينبثق عنه فعل ارجائي لكل ما يمثل المعنى على اختلاف صوره، لأن المعنى في هذا الموضع تصريح آني ضمن تأجيل مستمر.وبهذا الفهم فان عملية الاشتغال التأويلي للمعنى تنتج عن مجموعة من الآفاق التحاورية بين الفعل القبلي والفعل البعدي الذين يتشكلان من الواقع الثقافي واندماجه مع واقع التلقي في فضاء اللحظة التواصلية وهو ما يشكل فضاء المعنى وتداوله عند المتلقي في افق التوقع.

٤. نموذج رقم (٣):

٥. المتلقي:

ضمن مفهوم الكتابة واجراءاته فان التلقي عملية نموذجية ذات نمط خاص لا يخضع لأية سلطة غير الوعي، والمتلقي على وفق هذا المفهوم هو كيان نموذجي ايجابي وهو ايضاً فعل باث لمجمل التأويلات وكتابتها ضمن حركية التاريخ والثقافة.

ان مفهوم الكتابة يستبعد توصيف الـ سلبي للمتلقي بكل ظروفه بهدف تفعيل عملية التحاور السلطوي للوعي بذاتيته وجمعيته على حدٍ سواء لأن المتلقي كاتب ومعادل موضوعي لحركية التاريخ وهو يتنقل من مركزية الخطاب الى مركزية الهامش الاولي والافتراضي الذي يؤكد اشتغال فضاءاته القرائية ضمن نظريتي: فعل القراءة وافق التوقع بهدف كتابة نص يتجاور احياناً وينقطع في اخرى عن نص الخطاب الجمالي . فان عملية التلقي تمتاز بوصفها عملية تواصلية مستمرة دينامية في التوليد والتشكل لبنية العلاقات بين الوعي والوجود.

نتائج البحث:

١. الكتابة مجال ثقافي من التحاور بين العملية الإنسانية واشتغالاتها الجمالية، انها فجوة دائمة التواصل والتشكل والاختلاف وكما هو في خطاب المسرح المعاصر مسرح اللامعقول ومسرح القسوة ...الخ.

٢. المعنى انزياح مستمر وحوار قائم على فعلي : الاختلاف والارجاء وهما فعلين يمتازان بالحركية المستمرة والنسبية والتنقل بين الحضور والغياب من جهة وبين التجاور والانقطاع من جهة اخرى.

٣. الكتابة مفهوم توالدي دينامي مستمر في عملية التلقي للخطاب الجمالي، وهو نتاج لفعل قرائي تنبثق عنه افاق توقعية لجدلية التحاور بين الاثر وتصوره ضمن المعطى الثقافي في كتابة المعطى الجمالي.

هوامش البحث

[1] . محمد شوقي الزين، تأولات وتفكيكات، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١ ، ٢٠٠٢، ص٢٣.

[2] . ينظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، الدار البيضاء: دار توبقال: ط٢: ٢٠٠٠:

[3] . جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، الدار البيضاء: دار توبقال: ط٢: ٢٠٠٠: ص٦٢.

[4] . رولان بارت، لذة النص، ترجمة: منذر عياشي،سوريا: مركز الإنماء العربي، ط٢ ، ٢٠٠٢، ص٢٩.

[5] .ينظر: جون اليس ، ضد التفكيك ، ترجمة: حسام نايل، القاهر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢، ص ١٦ ـ ١٧.

[6] اكرم اليوسف ، الفضاء المسرحي ، المغرب :دار المشرق ،١٩٩٢ ،ص٦٨

[7] . جمال الدين الخضّور، عودة التاريخ الانتربولوجية المعرفية العربيةالجزء الأول، ١٩٩٧ ، ص ١٥.

قائمة المصادر:

١. اكرم اليوسف ، الفضاء المسرحي ، المغرب :دار المشرق ،١٩٩٢ .

٢. جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، الدار البيضاء: دار توبقال: ط٢: ٢٠٠٠:

٣. جمال الدين الخضّور، عودة التاريخ الانتربولوجية المعرفية العربيةالجزء الأول، ١٩٩٧.

٤. جون اليس ، ضد التفكيك ، ترجمة: حسام نايل، القاهر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢.

٥. . رولان بارت، لذة النص، ترجمة: منذر عياشي،سوريا: مركز الإنماء العربي، ط٢ ، ٢٠٠٢

٦. محمد شوقي الزين، تأولات وتفكيكات، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١ ، ٢٠٠٢.